أسامة أنور عكاشة

تحت شجر البرتقال

obeikandl.com

obeikandl.com

في عام ١٩٨٤ كان لقائي الأول بالكاتب الكبير أسامة أنور عكاشة ،وبعدها تعددت اللقاءات ،بعضها في شقته بالجيزة قبل أن يرحل منها ، وأخري في أماكن كان يهجر المنزل إليها من أجل الكتابة .. ذهبت إليه أكثر من مرة في فندق يقع في بداية شارع الهرم ، ولم يكن يطلع أحد بمكانه إلا بعد عودة أهل بيته له ، فيبلغهم بما إذا كان يوافق على إعطاء رقم التليفون لمن يطلبه في البيت أم لا ، كما تجولت معه في ندوات كان يعقدها في أعقاب النجاح المدوي لرائعته « ليالي الحلمية » ، ذهبت معه إلى كلية الزراعة بقرية مشتهر بمحافظة القليوبية ، وإلى معهد الكفاية الإنتاجية بجامعة الزقازيق ، كما لبي دعوتي لندوة حاشدة في قريتي « كوم الآطرون - طوخ - قليوبية » ، و بصحبته جاء الفنانان سيد عبد الكريم ، وسيد عزمي .

كنت وقت لقائي الأول به في نهاية دراستي الجامعية ،وأمارس العمل الصحفي بالكتابة لبعض الصحف العربية مثل « الخليج » .. وكان أسامة بالنسبة لي نموذجا للمبدع الذي تمنيت لقاءه ليس لغرض صحفي وفقط ، وإنما لمعرفة من أي منبع تأتي موهبته الفذة ،التي بشرت بأننا على موعد قادم مع موهبة متفجرة سترفع من شأن الدراما التليفزيونية ليس في مصر وفقط ، وإنما في كل أرجاء الوطن العربي .

جاء اللقاء بعد أن شاهدت له مسلسله الجميل « وقال البحر » بطولة عزت العلايلي وفردوس عبد الحميد ، لكنني كنت مسكونا بمسلسل آخر له هو «أبواب المدينة » إخراج فخر الدين صلاح صديق عمر أسامة وصاحب الفضل الأول عليه في التحول من الأدب المكتوب إلى الدراما التليفزيونية، ومات فخر مبكرا في حادث سقوط طائرة كانت متوجهة إلى العاصمة اليونانية أثينا، فخسره إبداع أسامة الذي فاض نهره لاحقا ، كما خسره الإخراج التليفزيوني عامة .

لعب صلاح السعدني والفنانة المعتزلة نسرين وسيد عبد الكريم والراحل عبد الله محمود وصلاح عبد الله ومحمود التوني بطولة « أبواب المدينة » ، وكان المسلسل

هو الأول تقريبا في فضح الفساد الذي بدأ في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، بفضل سياسة الانفتاح الاقتصادي التي أقرها الرئيس أنور السادات بعد انتصارات حرب ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وأدت إلى تراجع سلم الأولويات عند شرائح من المصريين ،ليصبح الكسب السريع وبأي وسيلة هو الهدف الرئيسي لهذه الشرائح ، وتم ذلك وسط نهج سياسي عام على النقيض من النهج الناصري الذي ساد في مرحلة الخمسينات والستينات : وعاش أسامة في ظله .

دق أسامة في « أبواب المدينة » ناقوس الخطر مما هو قادم من ريح عاتية تؤججها سياسات قفزت بالمفسدين إلى الواجهة ، وأعادت الحالمين بوطن أفضل إلى الخطوط الخلفية ،وفي المسلسل تجلت براعة أسامة في نسج حدوتة تشمل كل فئات المجتمع ، من فقراء مكافحين ، إلى أثرياء فاسدين ، ومن سلطة تشجع على بيئة الفساد ، إلى مثقفين حالمين مقاومين ، ودارت الحدوتة بحوار بارع ينفذ إلى القلب والعقل في أن واحد .

بلغ إعجابي ب« أبواب المدينة » حد حفظي لمشاهد كاملة فيه ، وأخضعته لاجتهادات نقدية كنت أمارسها وقتئذ تحت تأثير حلمي بأن أكون ناقدا أدبيا ، وفي اللقاء شعر أسامة بذلك .

تم لقائي الأول عبر الفنان الجميل سيد عبد الكريم الذي يعمل أستاذا في كلية الزراعة بقرية مشتهر القريبة من قريتي ، التي زارها أسامة فيما بعد، للقاء جمهور مختلف يختبر من خلاله قيمة ما يقدمه ، وفي مطعم « بابريكا » المجاور لمبني اتحاد الإذاعة والتليفزيون جلسنا نحن الثلاثة ، ليدور حوار طويل .

كان أسامة في مطلع الأربعين من عمره ،وكنت أنا أزيد قليلا عن نصف عمره .. كان متدفقا بتوهج في حديثه.. يدخن «البايب »، ونقطع الحديث بحوارات عن الزمالك والأهلي ، فهو كان زملكاويا غاضبا وقتها من مستوي فريق الزمالك لكرة

القدم ، وكان الدكتور سيد عبد الكريم أهلاويا وأنا معه .

التأثر بثورة يوليو

كان الحوار باكورة لحوارات عديدة مع أسامة ، وأحاديث مشتركة في ندوات ، ولم يكن الهدف منها النشر الصحفي ،بقدر ما كانت محاولة دائمة من الاقتراب لعالم هذا الموهوب الفذ ، وكلما عدت إلى حوار مطعم «بابريكا » اكتشف أهميته من زاوية أنه يمثل ما يمكن تسميته ب«المرحلة الأولي » في إبداع أسامة أنور عكاشة ، وهي المرحلة التي كان فيها متأثرا بثورة يوليو وبقائدها جمال عبد الناصر ،وقدم فيها أعماله الرائدة ، وهي ، « الشهد والدموع» ثم « ليالي الحلمية »، و«الراية البيضا » ، وامتدت هذه المرحلة حتى غزو العراق بقيادة الرئيس العراقي صدام حسين للكويت عام ١٩٩١ ، وما تلاها من حروب قادتها أمريكا ضد العراق ، أدت إلى خروجه من الكويت ،وتواصلت بحصار دولي طويل على الشعب العراقي ، ثم انتهت باحتلال العراق عام ٢٠٠٣ وسقوط نظام صدام حسين .

أدي هذا الفصل البائس في تاريخنا العربي إلى تغيير كبير في قناعات أسامة أنور عكاشة ، وبعد أن كان ممن يؤمنون بالقومية العربية ،انقلب عليها مطالبا بالبحث عن أصل هوية المصريين ، لأن القومية العربية حسب رأيه: « دفنت في بحر الباطن »، وكان موقفه المضاد للقومية العربية ، ثم عدوله عنه قبل رحيله ،هو :موذج صادق وحقيقي لقلق المثقف المهموم .

مع بدء أسامة مراجعة قناعاته «القومية العربية» ورفضه التمسك بها كأساس أيدلوجي ، هناك من حاول استثمار ذلك لأغراض سياسية خبيثة ،بمعني جره إلى الهجوم على جمال عبد الناصر ، وتأييده للسلام مع إسرائيل ،إلا أنه ظل على مواقفه المبدئية حتى رحيله في العداء لإسرائيل والتطبيع معها ، وظل على تقديره وحبه لجمال عبد الناصر مع اختلافه مع نظامه، وفي ظل هذه الحالة من حياة أسامة ،

جاءت أعماله المعبرة عن قلقه في البحث عن هوية ، وشملت مسلسلات «أرابيسك» ، و«زيزينيا » و« المصراوية » التي خطط لأن تكون خمسة أجزاء ، لكنه توفي بعد أن قدم جزئين فقط منها.

وأعود إلى جلستي الأولي مع أسامة ، وحواري معه الذي تطرق فيه إلى بداية تجربته الفنية ، قائلا :« بداية تجربتي كانت أدبية ، فأنا كاتب قصة ، وظللت أنشر لفترة حتى جاءت حرب ١٩٦٧ ، وتلاها فترة إحباط ، ومع الإحباط العام ، كان إحباطي الخاص متمثلا في عدم وجود حركة نقدية تتابع وتناقش ما أكتبه ، وبالطبع فإن الكاتب لا يحس بقيمة ما يكتبه إلا إذا كان هناك قارئ وناقد ، وكان الحل في الدراما التليفزيونية التي أتاحت لي الفرصة إلى الوصول إلى القارئ المصري ، بأسلوب مختلف لا يشمل شروط شراء كتاب والتفرغ لقراءته ، وبانتشار التليفزيون في أعماق الريف تمكنت من التواصل مع شرائح واسعة في المجتمع لم أكن سأصل إليها أبدا ، والنتيجة أنني هاجرت أرض الأدب إلى التليفزيون ، وبدأت بإعداد قصص منشورة لي ، ثم تلاها كتابة لمسلسلات مباشرة منذ عام ١٩٧٦ ، ورغم الشهرة التي تحققت بفضل اللجوء إلى الدراما التليفزيونية . إلا أن الأدب لم يفارقني ، وطموحي أن أصل إلى ما يمكن أن نسميه ب«أدب التليفزيون » ، وأعمل لتحقيقه منذ ٨ سنوات ،قدمت فيه عددا من المسلسلات والسهرات ».

سألت أسامة عن سمات أدب التليفزيون الذي يطمح إليه ، فأجاب :« أتخيله أدبا أولا ، وتليفزيونيا ثانيا ، بمعني توفير مقاييس الأدب في النص الدرامي التليفزيوني ، وتتم المعالجة الفنية بناء على مقاييس قد يستعيرها التليفزيون من دراما أرسطو ، ولكن بنص يستمتع به المشاهد كما لو كان قارئا ،وبعد ذلك يتحول إلى مادة مكتوبة يكون الإقبال على قراءتها بنفس درجة الإقبال على رواية لنجيب محفوظ أو يوسف إدريس وكما قلت لك هذا طموح ، وتحقيقه يحتاج إلى حركة عامة فيها أدباء ونقاد ،

وأدعو النقاد بشكل خاص إلى الالتفات لهذا الجانب ، بمواكبة الدراما التليفزيونية بحركة نقدية رصينة تقوم على معايير صحيحة ».

كان أسامة يطرح طموحه عن « أدب التليفزيون » بحيوية الشباب المقترنة بطموح التغيير الذي يملأ قلبه وعقله، وبصرف النظر عما إذا كان هذا « الأدب » قد تحقق أم لا ، إلا أنه كان يبشر بمؤلف للدراما التليفزيونية من طراز مختلف ، مؤلف استطاع أن يجعل ارتفاع نسبة المشاهدة للدراما التليفزيونية مقرونا باسم مؤلفها ، قبل النجم الذي سيلعب بطولتها ، كما استطاع أن يحقق جانبا من طموحه بجذب نقاد أدب كبار إلى الالتفات لهذه الدراما، وكان الناقد الراحل الدكتور عبد القدر القط أبرز من فعلوا ذلك ، حيث قدم اجتهادات نقدية سعي من خلالها إلى التأصيل لـ « أدب التلفزيون » الذي طمح اليه أسامة .

انتقلت مع أسامة إلى طبيعة الموضوعات التي تفرض نفسها عليه ، فجاء الحديث منه مباشرة عن ثورة يوليو عام ١٩٥٢ قائلا :« هناك مسائل لابد أن تضعها في الاعتبار وهي ، أنني واحد من جيل ثورة يوليو ، ليس من الذين قاموا بها ، ولكن ممن تربوا على مبادئها وشاهدوا قيامها ، وعاشوا معاركها ، وللثورة بصمة أساسية في تاريخنا ، تتمثل في تنمية الحس الاجتماعي واقتحام مشكلة التفاوت الطبقي والاختلال الاجتماعي الموجود في مصر ، وكمية الوعي الاجتماعي وتنميته نشأ عندنا جميعا بهذه الصورة ، ومن خلال معارك الثورة التي عشناها شبابا ، والفنان أو الأديب الذي شرب قيم ومعتقدات هذه الفترة ،لاشك أن مجتمعه سيكون هو اهتمامه الأول ، يدخل فيه أسئلة يعاني منها ، ويعاني من تدبير السبل للوصول إلى أجوبة عليها ، وهذا هو مدخلي الأول إلى طبيعة الموضوعات التي تفرض نفسها على في التأليف ».

ينتقل أسامة إلى ما يعتبره المدخل الثاني والذي يرتبط عنده بتاريخ مصر ، قائلا :

« ما يلفت نظري أن الحد من انطلاق المجتمع المصري يعود إلى التركيبات والتناقضات الموجودة داخله ، والقوالب التي فرضت على تطوره الاجتماعي، بالإضافة إلى أن تاريخ مصر يتمثل بداخلي دائما ، فأنا قارئ جيد لهذا التاريخ ، ومن خلال هذه القراءة أتصور أن هناك ديمومة واستمرارية للروح المصرية مقترنة بمشاكل مجتمعها من قرون ، وهذه ظاهرة يتفرد بها المجتمع المصري ،والتفرد هنا لا يقتصر على الحفاظ على الأصالة وبقاء الطبقة فقط ، ولكن هناك ظاهرة ديمومة المشاكل وعراقتها ، فمازالت مشكلة المصريين هي نفس المشكلة من ٤٠٠ أو ٥٠٠ سنة ، وهذه مسألة تبعث على الأسف ، لكنها تدل في الوقت نفسه على أن التطور الكبير أو الحدث الأساسي أو الجذر في تاريخ مصر لم يأتي بعد ».

زاد أسامة في طرحه السابق بالتأكيد على أنه مهتم بمسألة موقف المثقف وانحيازه في مجتمع مثل مجتمعنا ، والدائرة التي يتحرك فيها لكي يوائم بين ما يراه في أرض الواقع ، وما يحلم به لبلده أو وطنه، فهذه مشكلة أعاني من التفكير فيها ، وتجدها في معظم أعمالي ، فأنا دائم التفكير في طبيعة العلاقة بين المثقف ومجتمعه ، وعقد ومشاكل المثقفين التي تحكم انحيازهم، والعلاقة الجدلية بين المثقف ومجتمعه ، والي أي مدي يكون المثقف صادقا وهو يتعامل بشعاراته مع المجتمع .

الفرد والمجتمع

احتلت قضية العلاقة بين الفرد والمجتمع مساحة كبيرة في حواري مع أسامة أنور عكاشة ، وكانت أعماله الفنية حاضرة في المناقشة حول هذه القضية بالتحديد ، كما جرت أسامة إلى الحديث عن جانب من تكوينه الفكري الذي مر به ، وضبطه على قناعة محددة فيها ،وللتذكير فإن الحوار جري قبل انهيار التجارب الاشتراكية وفي المقدمة انهيار الاتحاد السوفيتي حيث يتعرض أسامة في جانب من كلامه عن غياب الديمقراطية في هذه الدول ، قال أسامة :« من ضمن المعارك الفكرية التي

ارتبطت بالتغيرات السياسية في مصر ، كانت مشكلة الفرد لصالح الجماعة أو الجماعة لصالح الفرد ، والحقيقة أن تناول هذه القضية بهذا الشكل كان تلخيصا مخلا لمسألة النظام الاجتماعي رأسماليا أو اشتراكيا ، وأنا أعتقد أنه ليس هناك تعارض حتمي بين الفرد والجماعة ، فبعض المجتمعات الاشتراكية عانت في فترات التطبيق من بعض السلبيات التي تتصل مباشرة ببعض الموضوعات المتعلقة بغياب حرية الفرد والديمقراطية ، وهذا الغياب هو من ضمن السهام القوية التي توجه إليهم ، ولكن أنا أري أن الفرد في المجتمعات الرأسمالية المفتوحة بالكامل ليس حرا بالدرجة التي يتصورها الناس ، فلا يوجد فرد في أي مجتمع الآن حرا حرية كاملة أيا كان مذهبه وعقيدته ، وهذا يقربني من جزء من الشخصية ، حيث تأثرت بالمذهب الوجودي كفلسفة ، وهو يعتمد على شيئين أساسيين هما الحرية والمسؤولية ، أي تحقيق الذات من خلال الحرية وحدودها ، ومسئولية الإنسان الذي يحاول أن يمتلك حريته ، أو يمتلكها بالفعل، وأذكر أن هناك محاولة كانت لسارتر تتمثل في المزاوجة بين الوجودية والماركسية وهرب منها في النهاية ، وأعتقد أنها تصلح لحل التناقضات داخل المفكر الملتزم ، وأتذكر كلمة قالها الميثاق الذي وضعه جمال عبد الناصر عام ١٩٦٢ :« أن العبيد هم القادرون على حمل الأحجار ، أما الأحرار وحدهم فهم القادرون على التحليق إلى آفاق النجوم » ، وهذه العبارة تقودني إلى مسألة الحرية وقدرها من ناحية متي تبدأ للفرد ومتي تنتهي ؟، وكيف يكون هناك حرية اجتماعية وحرية سياسية في أن واحد ، وقصدي بالحرية الاجتماعية تلك التي تقوم على توزيع عادل للثروة بين طبقات المجتمع ، ومجمل هذه القضايا لابد أن تكون ضمن الاهتمامات الشخصية لأي مثقف لأنها تمسه مباشرة ، و أحيانا يكون المثقف في صراع بين التزامه بالقيود الاجتماعية الموجودة حوله وبين حريته الشخصية ، وأنا أعتبر تاريخ الإنسان مجموعة من المحاولات التمردية على القيود،

بصرف النظر عن أن المقصود بهذا هو الإنسان المصري ،أم الإنسان في كل مكان بالعالم يحاول التمرد على القيود التي تكبل حركته دائما .

كانت أعمال أسامة الدرامية حاضرة في حواراتي معه ، ومع تكرار اللقاءات خرجت هذه الحوارات من صلب اهتمامي الصحفي، لتتحول إلى مناقشات ثرية كنت حريصا على تدوين جانب منها كي احتفظ به للتذكرة ، تحدث عن لرمز في مسلسله «وقال البحر » الذي يقوم على فكرة البحث في البحر عن كنز عبارة عن عقد خرز وكيف يتم الصراع وتدور الدسائس من أجل الوصول إليه ، قال : « عندما حاولت أن أتكلم عن موضوع النفط على اعتبار أنه أحد المشاكل العربية ، أو بالتدقيق جلب لنا المشاكل . اضطررت إلى اللجوء للأسلوب الرمزي والأسطوري ، لكي أصل إلى ما أريده ، وأحمد الله أن ما أريد قوله وصل بالفعل إلى الكثير من شعوب بلدان الخليج ، واستطاعوا تفسير هذا الرمز ، وقالوا :« أن المسلسل يتكلم عن كيفية أخذ ثرواتنا وإعطائنا قشور يضحكون بها علينا ، مثل الخرز الملون الذي ضحك به البيض على الهنود الحمر ».

وعن مسلسل « سلسي » الذي لم يعرض في مصر، قال : إنه تعرض لفترة مبكرة من الحرب اللبنانية التي تفجرت في أواخر السبعينيات من القرن الماضي ، واستمرت حتي قيام صدام حسين بغزو العراق عام ١٩٩٠ ، ولما سألته من خلال هذين العملين عما إذا كان يقصد الخروج من قضايا مصرية الطابع إلى قضايا عربية ، أجاب :« مشاكل الواقع العربي ككل تتقارب إلى حد كبير مع مشاكل الواقع المصري ، لكونه مجتمعًا واحدًا وجغرافيته واحدة ومشكلته واحدة وهي التخلف ، فنحن نحاول الوصول إلى العصر الذي نعيشه ، لكن تقف محاولتنا عند العيش بأجسادنا فقط في ركاب التقدم ومظاهره ، وتبقي الحقيقة عند أننا متخلفون بما لا يقل عن قرنين أو ثلاثة عن التحضر والمعايشة الفكرية الحقيقية للعصر ، بمعني

قدرة هذه المعايشة على أن تضعنا على خط واحد مع الدول المتقدمة .

تطرقنا إلى مسلسل « أبواب المدينة » ، والذي احتوي على شخصية عاشور الملط وكانت ترمز إلى الطبقة الطفيلية التي تولدت بفعل قرار الانفتاح الاقتصادي الذي اتخذه السادات ، وانتهي المسلسل بالقبض عليه مما أعطي إيحاء بأنه تم القبض على هذه الطبقة الطفيلية بالكامل بالرغم من أن السادات مات وتركها تترعرع على حساب الفقراء ، كان هذا هو فهمي لنهاية المسلسل الذي قلته لأسامة أنور عكاشة وقتها ، فرد قائلا، أن الفن في شروطه لابد أن يحتوي على تبشير ، بمعني أنه إذا اعتبرنا أن عاشور الملط في « أبواب المدينة» هو رمز للطبقة الطفيلية ، فإن القبض عليه هو تعبير عن انتصار قوي الشارع في حربها ضد الاستغلال ، وهذا يعني أننا يجب ألا نطفئ جذوة الأمل عند الناس ، وأنا أصررت على القول في المسلسل أن مصر تتحرك وتمشي في طريقها ، وكلما جاء عاشور الملط وأمثاله ، كلما انتصر عليهم الناس .. أمثال عاشور الملط فترة لابد أن تزول ، قد يطول بقاؤها لكن لابد أن تنتهي .

كانت نظرية « الواقعية والاشتراكية في الأدب والفن » ما تزال على نضارتها وقت أن كان أسامة يتحدث عن « أبواب المدينة » ، ومنها جاء رده على سؤالي حول نهاية المسلسل والقبض على عاشور الملط رمز الرأسمالية الطفيلية ، قال أسامة مضيفا على ما سبق :« يجب ألاَّ أكون من خلال ما أكتبه أداة تولد الإحباط واليأس لدي الناس ، وأحذر من التصوير بأن الفقراء والمقهورين لا يمكنهم مقاومة « الغيلان » ، مما يؤدي إلى الإحساس باليأس وعدم الجدوي وعبثية المقاومة، وأعود بالتذكير إلى أنه وقت عرض هذا المسلسل ، ظهرت لوحة مكتوب عليها :« هذا المسلسل خيالي والأشخاص والأحداث التي وقعت فيه ليس لها صلة بالواقع » .

أضاف أسامة :« كان هذا التصرف هو الأول من نوعه في طريقة التعامل مع

المسلسلات التليفزيونية في مصر ، ولو كان هناك جزء ثالث من المسلسل كان من الممكن الحديث عن عودة عاشور الملط إلى مزاولة أعماله مرة ثانية ، كما حدث مع أسماء عديدة تمت محاكمتها بعد موت السادات وفقا لقانون العيب ومحكمة القيم ، وكانت العقوبة محدودة مما ساعدهم على التهرب والعودة إلى نشاطهم مرة أخري».

الشهد والدموع

يمكن القول أن مسلسل « الشهد والدموع » الذي قام ببطولته يوسف شعبان وعفاف شعيب وخالد ذكي ومحمود الجندي ،ونوال أبو الفتوح والفنانة المعتزلة نسرين وعبد العزيز مخيون وعبد المنعم إبراهيم وسيد عبد الكريم وآخرين ، كان هو الفرشة لـ « ليالي الحلمية » هذا العمل الخالد لأسامة ، والخالد في تاريخ الدراما التليفزيونية العربية .

في « الشهد والدموع » كان هناك اقتحام مباشر إلى حد ما لقضايا السياسة ، فبعد سنوات السبعينيات التي شهدت هجوما كاسحا على الفترة الناصرية، وجدنا عملا دراميا لا يخفي تعاطفه معها بالرغم من انتقادات يوجهها لها ، لكنها الانتقادات التي تتم على أرضية التأييد للمرحلة بمشروعها السياسي ، وجاء المسلسل في وقت انتهي فيه منع إذاعة الأغاني الوطنية التي اشتهرت في فترة الخمسينيات والستينيات بصوت عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ، والتي شهدت حجبا متعمدا مع بدء حملة الهجوم المنظمة ضد جمال عبد الناصر بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ،وكان انتشار هذه الأغنيات عبر شرائط الكاسيت لافتا ، كان الحنين إلى عبد الناصر وزمنه يطل من كل شيء ، وفي هذا المناخ جاء مسلسل « الشهد والدموع » الذي تحدث عن محطات كبري في المرحلة الناصرية مثل قوانين التأميم ، ونكسة ٥ يونية عام ١٩٦٧ ، وشق المسلسل طريقه إلى كل المنتديات والتجمعات السياسية وبين الأسر المصرية ، أصبح مجال حديث الكل خاصة أنه كان نجم

الدراما الرمضانية ، ولم تكن الدراما وقتها بالازدحام الموجود حاليا .

كانت أسرة زينب في المسلسل ،نموذجا للأسر المصرية التي عاشت العذاب بعينه ، بعد أن أكل العم ميراث أخيه زوج زينب ، الذي توفي تاركا وراءه أسرة محرومة من كل شئ ،وفي نفس الوقت هي الأسرة الموعودة بتقديم التضحيات في سبيل الدفاع عن مصر ، فابنها حسين يدخل الجيش ويعيش مرارة نكسة ٥ يونية ١٩٦٧ وعلي يديه يستشهد رفاقه من الجنود على الجبهة ، أما الإبن الأكبر أحمد فهو البكر الذي شرب مرارة الحرمان وقسوته ، ووضعت الأم فيه كل أملها ، وظلت تسقيه معني الانتقام من العم بعد أن يشتد عوده .

وفي المقابل كانت أسرة العم تنعم بكل شيء ، ورغم نعيمها يهرب الابن من الخدمة في الجيش ببقائه في الخارج ، ويستمر بعيدا حتى يعود ليحاول أن يفرض نمطه الرأسمالي المستغل على الأسرة تساعده الأم في ذلك .

كان هذا هو الخط العام للمسلسل الذي فرض نفسه على الجميع وقت عرضه ، ولما سألت أسامة عن قصده من أسرة زينب ، أجاب ، أن « الشهد والدموع » عمل تاريخي ليس بمعني الأعمال السردية ، وإنما محاولة تأصيل لأسرة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة ، التي اعتبرها حاكمة التطور في مصر ، وتعطي لحركة النضال المصري كوادره ، حاولت من خلال المسلسل البحث عن كيف نشأت هذه الطبقة ، وكيف واكبت الأحداث السياسية التي عاصرتها مصر حتى عام ١٩٧٥ ، وكيف تغرس الرغبة في أفرادها للصعود إلى الطبقة الأعلى ، والخوف من السقوط للطبقة الأدنى ، ومن هذا الطموح إلى الخوف من نقيضه يأتي ما أسميه « عذابات الطبقة الوسطي » ، أسرة زينب نموذج لهذه الطبقة ، ومن خلال معاركها الكثيرة مع العم آكل ثرواتها في الميراث تتضح رؤيتي ، فالأسرة تستميت في نضالها من أجل استرداد هذا الميراث الضائع ، الذي باسترداده سترتفع إلى الطبقة العليا ،وفي نفس الوقت تناضل نضالا

مريرا في البحث عن وسيلة آمنة لإيجاد لقمة العيش ، وتأمين مستقبل الأولاد في التعليم ، وكل هذا يصب في الخوف من السقوط إلى الطبقة الدنيا ، وبين هذا وذاك تعيش الأسرة « عذابات الطبقة المتوسطة .

يواصل أسامة : أوضحت أن زينب تستمد قوتها من إيمانها الشخصي وحقدها على الطبقة العليا ، وجاء هذا نتيجة الظلم الذي وقع بها ، فكراهية الظالم والحقد عليه شيء مهم لابد أن تتواجد عند المظلوم حتى يستطيع استرداد حقه ، أما أولاد زينب فهم يمثلون اتجاهين ، اتجاه يمثله حسين ويتجلى في التعامل السياسي ،حيث يخترع وسيلة للتداخل في العلاقات الإنسانية مع أسرة عمه حافظ ، وذلك بهدف ضرب عمه في عقر داره ، أما الاتجاه الثاني فيتمثل في النضال المباشر ويمثله أحمد الذي ينظر إلى عمه وما فعله من ظلم لهم ، بنظرة أحادية عبر عنها بقوله :« اللي إتاخد غصب يرجع غصب ».

كان مسلسل « الشهد والدموع » وكما قلنا هو الأول من نوعه في إظهار التعاطف مع ثورة يوليو ومشروعها ، وذلك بعد سنوات من الهجوم المتواصل على جمال عبد الناصر سينمائيا وإعلاميا ودراميا ، ولهذا كان السؤال المطروح في المنتديات ودوائر الرأي العام :« كيف مر هذا العمل من الرقابة ؟» ، وهو السؤال الذي حملته لأسامة فأجاب: مررنا بمرحلتين مع الرقابة ، المرحلة الأولي خارج مصر مع الشركة المنتجة ، وكانت تطلب بصريح العبارة حذف التطورات التي جاءت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وخاصة الجزء الذي كان يحتوي على التأميمات التي تمت على أثر قوانين يوليو الاشتراكية عام ١٩٦٢ ، واختلفنا مع الشركة ولم نكمل الجزء الثاني عندها ، وجئنا إلى التليفزيون المصري تبدأ المرحلة الثانية مع الرقابة ، فبعد أن حصلنا على الموافقة على الورق ،ثم حاولوا تفريغ العمل من مضمونه ، وامتد ذلك إلى الشريط المسجل فهناك أشياء حذفوها في المونتاج وكان مسموحا بها

على الورق مسبقا ، وأمام هذه التصرفات كان أمامنا ، إما الإصرار على موقفنا كما في الورق الذي كتبته ، وفي هذه الحالة لن يعرض العمل ، وإما العمل بمبدأ ما لا يؤخذ كله لا يترك كله ، وعملنا بالمبدأ الثاني وكانت نتيجته أننا اضطررنا إلى حذف أشياء هامة مثل ، الانفصال بين مصر وسوريا ، ومقدمات نكسة ٥ يونية ١٩٦٧ ونتائجها ، وكما في ورق المسلسل كنت أناقش ما إذا كانت النكسة وقعت بسبب سلبيات داخلية أو تآمر قوي خارجية ، ورؤيتي كانت أن ما حدث هو نتيجة تضافر عوامل خارجية مع عوامل داخلية ، وظننت بذلك أنهم سيأخذون الأمر على اعتبار أنه خط هجوم على جمال عبد الناصر وبالتالي سيتركونه ، لكنهم كانوا أذكي فقد أحسوا أن عرض التجربة في حد ذاتها بسلبياتها وإيجابياتها شيء خطير مما اضطرهم إلى حذف ما يخص ذلك والاكتفاء بالإشارة إليه فقط دون تأصيله دراميا ، ووصل الأمر بهم أيضا إلى رفض ذكر اسم عبد الناصر وتعليق صورة له ، رغم أننا علقنا صورة في الجزء الأول للملك فاروق ، وامتد التعسف إلى منع الأغاني الوطنية التي صاحبت فترة ثورة يوليو ، حيث هددوا المخرج إسماعيل عبد الحافظ بأنه إذا لم يتخل عنها فسوف يتم وقف التصوير ، لكننا تحايلنا على الأمر قبل تركيب الصوت ، واستطعنا وضع بعض الأغاني في الخلفية ، أما حرب أكتوبر فتم حذف ما يشير إلى أن انتصاره العسكري تم تفريغه من مضمونه عند استبداله بالحل السلمي ، مما اضطرنا إلى استبدال هذا المعني بمعني آخر غير مباشر وهو التفسخ الاجتماعي الذي عم مصر نتيجة الخط السياسي الذي تم إتباعه بعد حرب أكتوبر .

ديكتاتورية السادات

كنت في هذا الوقت أتردد على أسامة أنور عكاشة كثيرا في منزله بالجيزة ،لم تكن شقته السكنية كبيرة ، وفي إحدى حجراتها الصغيرة كانت صومعته التي تحتوي على كتب في التاريخ والأدب ، فهو قارئ لتاريخ مصر بنهم بالغ ووعي لافت ، وعرفت

منه ملامح البدايات من حيث ولد في كفر الشيخ عام ١٩٤١ لأب كان يعمل في التجارة ، وفي مدارس كفر الشيخ تلقى تعليمه حتى التحق بكلية الآداب جامعة عين شمس قسم الدراسات الاجتماعية والنفسية حتى تخرج منه عام ١٩٦٢ ، وفي هذه الفترة كتب القصص القصيرة ، وبعد تخرجه عمل أخصائيا جتماعيا في مؤسسة لرعاية الأحداث ثم انتقل إلى للعمل في إدارة العلاقات العامة بمحافظة كفر الشيخ ، ثم في إدارة رعاية الشباب بجامعة الأزهر حتى استقال عام ١٩٨٢ للتفرغ من أجل الأدب ، ومن خلال

توقف مسلسل « الشهد والدموع» عند عام ١٩٧٥ ، أي قبل بدء تبدل الخط السياسي مع إسرائيل ، وتحوله من العداء إلى الصداقة على أيد أنور السادات الذي زار إسرائيل يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، وهي الزيارة التي أحدثت زلزالا في الوطن العربي بتاريخه وجغرافيته ، زلزالا أظن أننا لم نفيق منه بعد، خاصة أنه وبعد سنوات من الحروب ضد إسرائيل ، أصبح لها علم وسفارة في مصر ، ولم يكن أسامة أنور عكاشة بعيدا عن هذا الزلزال ، وفي عام ١٩٨٧ وبعد عشر سنو ت من هذه الزيارة ، وبينما كان أسامة يواصل كتابته لرائعته الخالدة « ليالي الحلمية » ، سألته عن ذكرياته حول هذا اليوم الذي رأي فيه السادات يهبط بطائرته في مطار « بن غوريون » بتل أبيب ، والتأثير الذي تركه عليه ، فأجاب :« قصة هذا اليوم ، أصلها يبدأ من حرصنا على سماع خطب السادات من باب التسلية، ربما نجد فيها مادة ترفيهية تثير الضحك ،واستمرار لهذا الحرص كنت مع مجموعة من الأصدقاء ، نستمع إلى خطابه في مجلس الشعب الذي قال فيه :«أنه مستعد للذهاب إلى أي مكان في العالم من أجل السلام حتى لو كانت إسرائيل» ، ورغم ترجيح أصدقائي بأن هذا الكلام فيه مبالغة ، وأنه ربما يكون ناتجا عن فرط الحماسة في الخطاب ، إلا أنني توجست ، وأحسست بشيء ما قادم في الطريق ، شيء لا يبعث على الارتياح ، لكن لم يصل

إحساسي أبدا إلى إمكانية أن يذهب رئيس مصر إلى إسرائيل ، وأؤكد أن هذا كان هو نفس إحساس المصريين جميعا حتى بما فيهم الذين أيدوا هذه الخطوة وقت إتمامها .

يضيف أسامة :« حينما تداعت الأحداث بعد ذلك ،وفوجئنا بتوجيه دعوة من مناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى السادات لزيارة إسرائيل ، أحسست أنني أتفرج على فيلم فانتازيا ذروته الدرامية كانت في مشهد هبوط طائرة السادات في مطار بن غوريون ، واصطفاف قادة الدولة الصهيونية لاستقباله ،وسلامه عليهم بحرارة بالغة ..كان يوما غريبا ومريبا ،وفي تقديري أنه كان أكثر الأيام حزنا في تاريخ مصر ،بعد الحزن على وفاة جمال عبد الناصر» .

يواصل أسامة :« جلسنا أنا وأصدقائي أمام أجهزة التليفزيون نتابع كل حركة يفعلها السادات في مطار بن غوريون .. شعرنا بانتهاك أعراضنا غصبا ، كان الصمت يسود بيننا أكثر من الكلام ، ولما علق أحد الأصدقاء عفويا :« اللي بيحصل ده ولا حاجة جنب اللي حصل في نكسة يونية ١٩٦٧ » انتبهنا إلى كلامه لتدور مناقشات سارت كلها على خط ، أن ما فعله السادات هزيمة حقيقية لأنه ذهب إلى العدو يحمل كفنه على يده ».

يضيف أسامة :«كان موقفا يمثل فظاعة الديكتاتورية الحقيقة ، فرئيس مصر بكل ما تمثله يذهب دون استشارة شعبه ، ليتسول السلام مع كيان مدجج بالسلاح ، وبآلاته العسكرية الغاشمة قتل وشرد منذ وعد بلفور عام ١٩١٧ وحتى الآن ، أحسست يومها أن النصر الذي تحقق في أكتوبر عام ١٩٧٣ بدم الشهداء تم تصفيته وتحويله إلى لقطة تليفزيونية يمشي فيها أنور السادات على بساط من جماجم الشهداء ليصافح مناحم بيجين سفاح دير ياسين .. خيمت الكآبة علينا ، وتجمدت الدموع في أعيننا ، وتحول الغضب اليائس إلى طاقة انفجرت في وجه السادات فيما بعد» .

أطل موقف أسامة أنور عكاشة المعارض بشدة للسادات ، والمعارض للسلام

مع إسرائيل ، في مسلسل « ليالي الحلمية » ، كما فضح السلبيات الناتجة من تطبيع العلاقات مع إسرائيل في مسلسله « آرابيسك » ، ولم ينسي له ذلك الكاتب الصحفي إبراهيم سعدة رئيس تحرير أخبار اليوم : والذي نظم ضده حملة صحفية عنيفة فتحت لها صحيفة أخبار اليوم صفحاتها ، بعد أن نقلت وسائل الإعلام أن أسامة بصدد كتابة فيلم كبير يخلد حرب أكتوبر ، وأنه أقدم على هذه الخطوة بموافقة وزير الدفاع المشير حسين طنطاوي ، ولم يعجب إبراهيم سعدة هذه الخطوة، فأطلق قلمه هجوما على أسامة في حملة مغرضة وسخيفة ،وكانت حجة سعدة الجاهزة ، أن أسامة يحب عبد الناصر ويكره السادات ، وبالتالي كيف سيكتب عملا دراميا مجردا من مشاعره العدائية ضد السادات الذي صنع حرب أكتوبر ، ولم يصمت أسامة على حملة سعدة ، بل رد عليها بعنف ،موضحا أنه عمله الدرامي سيبدأ من رصد بطولات الجيش المصري في حرب الاستنز ف ، بوصفها الحرب التي هيأت الفرصة لانتصارات أكتوبر ، وظل السجال بين سعدة وأسامة أسابيع حتى توقف ، وللأسف لم يري المشروع النور رغم تأكيد أسامة على أنه لن يستسلم ، وقوله أن : «المشير حسين طنطاوي وزير الدفاع راجل جدع وشهم وقال لي استمر ولا يهمك » ، لكن مع كل أسف لم يكتب أسامة ، وهكذا أفسد إبراهيم سعدة فرصة خروج عمل درامي كبير عن حرب أكتوبر ، وللعلم فلم يكن هذا الموقف من سعدة هو الوحيد ، ضد مشروعات وأفكار فنية عملاقة تحمل تأصيلا قوميا ووطنيا ، فهو فتح صفحات أخبار اليوم أسابيع للهجوم الضاري علي فيلم « ناجي العلي » ، بطولة نور الشريف ، والذي تناول سيرة فنان الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي ، من مولده في فلسطين حتي تهجيره ثم اغتياله في لندن .

ليالي الحلمية

كنت على مواعيد جديدة مع أسامة أنور عكاشة في مسلسل « ليالي الحلمية »

بأجزائها الخمسة ، ومن الجزء الثاني تحديدا استطاع هذا العمل أن يفرض هيمنته على المشاهد المصري والعربي ، رأي فيه الكل تاريخا للتضال الوطني ضد الاحتلال الإنجليزي ، ونضالا من أجل البناء والاستقلال الوطني بعد ثورة يوليو ، وجد الناس مسلسلا يحدثهم عن أحلامهم التي ضاعت ، بعد أن ظنوا أنها بين أيديهم أثناء الفترة الناصرية .

مزج أسامة بصورة مدهشة مأساة انكسار الحلم الوطني بمأساة انكسار حلم أبناء الوطن في أحلامهم الخاصة ، فبينما كانت معارك عبد الناصر الوطنية تسير من جولة إلى أخري ،وكانت الجماهير من المحيط إلى الخليج تعيش وهج الحلم بوطن واحد ، وتوزيع عادل للثروة ، كانت علاقة الحب تطل ببراءتها بين على البدري وزهرة غانم ، وتطل بين قمر السماحي وابن عمها ناجي السماحي ، ومع انكسار الحلم وضياعه في مرحلة السبعينيات دخلت التجربتان نفقا مظلما ، لتنكسر في مشاهد حزينة أبكت المشاهدين وكأنهم هم الطرف الأصلي فيها، كان المشاهدون يتلقون كل خلاف بين على وزهرة ، وقمر وناجي بتأثر بالغ يصل إلى حد « الزعل » من أسامة نفسه ، وأذكر أنه قال لي : إنه سمع شتيمته بأذنه تعليقا على مشهد كانت فيه الخلافات محتدمة بين على وزهرة ، وذلك في مقهى شعبي نزل إليه دون أن يعرفه أحد ليتعرف عن قرب تفاعل الناس مع المسلسل

أضفي أسامة طابعا رومانسيا حالما على علاقة على بزهرة ،وناجي وقمر ، ودارت هذه الرومانسية في إطار بناء وطني شامل كان انعكاسا لحلم وطني كبير ، وكان ترجمة لجيل عاش عصر الأحلام الكبيرة ، والانكسارات العظيمة ، ولم يكن هذا الملمح هو الوحيد في « ليالي الحلمية » ،فمن خلالها شاهدنا كيف يكون العطاء عظيما من بسطاء الناس ممثلة في عائلة زينهم السماحي ، وبسطاء حي الحلمية حين يجدون أمامهم قضية وطنية تستحق العطاء ، عطاء دون مقابل كما عبر عن ذلك

عاصم السلحدار ، المثقف اليساري الذي وقف أمام المرآة يعلق على خبر استشهاد ناجي السماحي :« ناجي السماحي ..ابن طه السماحي ..أخو زينهم السماحي ..هم دول الناس الحقيقيين .. سلسال بيدي ومبيخدش »، فعل عاصم السلحدار ذلك بالرغم من أنه المثقف اليساري الذي ساهم في تشكيل وعي بعض أبناء الحلمية ، ودفع ثمن موقفه السياسي ،لكنه في لحظة صدق رأي أن ما قدمه لا يمثل شيئا لو تم مقارنته بما قدمه ، طه وزينهم وناجي السماحي .

كانت الندوات واللقاءات الجماهيرية تتلاحق حول المسلسل . وكان هو حريصا على تلبية كل الدعوات التي تأتيه ، و تجولت معه في بعضها خاصة الجماهيرية منها ،وكان أبرز ما يلفت النظر فيها أن أسامة كان هو نجم هذه اللقاءات بلا منازع ، وليس نجوم العمل من الممثلين الذين هم في العادة يحظفون الأضواء في مثل هذه اللقاءات .

ذهبت معه إلى ندوة في كلية الزراعة بمشتهر جامعة بنها ، وكان معه الفنان سيد عبد الكريم الذي جسد دور المعلم زينهم السماحي صاحب مقهي السماحي ، وحضر عبد العزيز مخيون الذي جسد دور الفدائي طه السماحي في المسلسل ، والذي خطف قلوب المشاهدين كمقاوم للاحتلال الإنجليزي ، أعطي كل حياته من أجل بلده ، وراح شهيدا تاركا طفله الذي سيشتد عوده ليصبح أيضا مقاوما بطريقة أخري .

وحين دعوته إلى ندوة في قريتي ، لبي على الفور وكان متحمسا لها لأنها حسب قوله لي ستعطيه فرصة ذهبية للتحاور مع جمهور مختلف ، جمهور في قرية يريد أن يعرف ما إذا كان يصله المعاني الأساسية التي يريد هو توصيلها من أعماله الدرامية أم لا ؟ ، وأذكر أنه قال لي مداعبا :« هيحضر الندوة فلاحين بجلاليب ، ولا الحكاية فيها أفنديات » ، قلت له ضاحكا :« هتلاقي من ده ومن ده ».

كانت الندوة بمثابة حدث جديد على أهل القرية والقري المجاورة لها ، فالنجوم الذي تقتصر الفرجة عليهم في التليفزيون سيأتون أمامهم بشحمهم ولحمهم ، وتهيأ الآلاف لاستقبال النجوم .

قبل موعد الندوة ذهبنا إلى حديقة البرتقال للاحتفاء بأسامة ومعه سيد عبد الكريم وسيد عزمي الذي جسد دور الأسطى زكريا في « ليالي الحلمية » ، وهو نموذج النقابي العمالي الذي بدأ حياته عاملا صغيرا في مصانع سليم البدري وشارك في المقاومة ضد الاحتلال الإنجليزي في منطقة القناة ، وأصبح نقابيا في عصر عبد الناصر الذي يعد العصر الذهبي لتاريخ العمال في مصر ، وصار رئيسا لاتحاد عمال مصر في مرحلة من عصر السادات ، واتهمه رفاقه القدامي من العمال والذين شاركوه في مقاومة الاحتلال بأنه باع تاريخه من أجل الوصول إلى المنصب ، لكنه عاد بعد ذلك إلى سيرته الأولي .

كان الأصدقاء من الكتاب ،عبد الحليم قنديل وعزازي على عزازي وسيد زهران(رحمه الله)، ضيوفا آخرين ، وفي مزرعة الصديقين الشقيقين والناشطين السياسيين الطوخي والسيد الطوخي ، وتحت شجر البرتقال بلون ثماره التي تزين الأرض الخضراء ، جلس الجميع لتناول الغذاء ، وكان عبارة عن فطير مشلتت وجبن قديم ،ورغم أن أسامة أبدي في البداية عدم رغبته في أكل الفطير لظروف مرضه بالضغط ، وحرصه على نظام غذائي معين ،إلا أنه وأمام إغراء الفطير ومداعبات سيد عبد الكريم له :« فرصة مش هتتكرر تاني يا أسامة » ، أمسك بالفطيرة قائلا : « ضغط .. ضغط .. الدواء يعالج الضغط ..لكن الفطير مش قادر أقاومه » .

ومع تبادل التفشات والضحكات ، كان الكلام ينتقل من قضية إلى أخري ، حتى جاء على قضية « ثورة مصر » ، وهي القضية التي كان متهما فيها الدكتور خالد

جمال عبد الناصر ، ومحمود نور الدين وآخرين ،بتكوين تنظيم مسلح ، قام باغتيال إسرائيليين يعملون في السفارة الإسرائيلية بالقاهرة ، وخرج بسببها خالد عبد الناصر إلى يوغسلافيا(قبل تفكيكها) . وظل في عاصمتها بلجراد ثلاث سنوات حتى عاد عام ١٩٩٠ ، وحصل على حكم قضائي بالبراءة .

أفاض الكل في الحديث عن القضية ، وبدا النقاش وكأنه يتجه إلى حبكة درامية ، وبالفعل التقط سيد عبد الكريم الخيط موجها كلامه إلى أسامة :« إيه رأيك يا عبقري .. موضوع كله دراما »، كان سيد يحرض أسامة بالفعل على إنجاز عمل درامي ، وأثني الصديق الدكتور عزازي على اقتراح سيد عبد الكريم ، وضحك أسامة معلقا باقتضاب :« الموضوع محتاج تفكير » ، لكن العجلة دارت فيما بعد ليكتب أسامة قصة فيلم : «كتيبة إعدام » بصولة نور الشريف، ومعالي زايد، وممدوح عبد العليم، وسيد عبد الكريم ، إخراج عاطف الطيب، وأذكر أن سيد عبدالكريم قال لي أثناء عرض الفيلم في السينما ، واشتداد الجدل حوله :« الفيلم ده مولود على حجري .. كنت كل يوم اسأل أسامة عليه واستعجله ، والأصل من أكلة الفطير والبرتقال عندكم » .

من تحت شجر البرتقال ، اصطحبنا أسامة وسيد عبد الكريم وسيد عزمي في السيارة ، إلى مكان انعقاد الندوة بمركز الشباب ولم يصدق الثلاثة أن كل هؤلاء الآلاف في انتظارهم ، ووسط زغاريد النساء والشيكولاتة التي ترميها السيدات القرية من على سطوح ديارها ، استوقف أحد البسطاء من أهلها السيارة أمام المسجد الذي كان يتم تجديده ليقول:« يا أسامة باشا .. يا معلم زينهم ..وانت كمان يا أسطي زكريا انزلوا بالصلاة على النبي عشان تقروا الفاتحة على سيدنا عتمان (صاحب ضريح المسجد) ، وبعدين تدفعوا قرشين تبرع عشان ربنا يبارك لكم في ليالي الحلمية» ، وبعد أن تدخلت لإنهاء الموقف ، انفجر أسامة وسيد عبد الكريم

وسيد عزمي في ضحك هستيري، وانطلقت السيارة في اتجاه مركز الشباب ، والثلاثة يواصلون ضحكهم ، وعلق أسامة : « مشهد طبيعي في مسلسل جديد » .

استمرت الندوة ما يزيد على ثلاث ساعات ، وشهدت حوارا راقيا لم يتعالي فيه أسامة على تفاوت الوعي بين الحاضرين ، وكان أكثر حرصا على سماع فلاحين من أصحاب الجلاليب والطواقي ، سأله شباب عن الهدف الحقيقي من استدعاء التاريخ في «ليالي الحلمية »وسأله فلاح عن السبب في تجاهله لوجود الفلاحين في المسلسل ،والتقط شاب هذا السؤال ليكمل عليه :« كان العمدة سليمان غانم والذي قام بدوره الفنان صلاح السعدني هو نموذج الفلاح في المسلسل وابنه زاهر، فلماذا اقتصرت على ذلك ، ونسيت الفلاحين الحقيقيين ،وأكمل آخر :« ليه المسلسلات بتصور الفلاحين على أنهم سذج؟» ، وسأله آخر معاتبا :« ليه يا أستاذ خليت الست سماسم (زوجة زينهم السماحي) تهرب ؟، وتوالت الأسئلة، وكان بعضها مكتوبا ، ورد أسامة عليها جميعا على حدة ومن إجاباته : « لم تكن شخصية العمدة سليمان غانم في المسلسل نموذجا للفلاح الحقيقي ، فهو ترك كل شئ في قريته وسافر إلى القاهرة للثأر لوالده الذي خسر أمواله على أيدي والد سليم البدري ، والفلاح الحقيقي لا يترك قريته وأرضه بهذا الشكل ، أنا لم أتحدث عن الفلاحين في المسلسل كنمط حياة ، أو دراما تخص قضاياهم ، ولهذا أدعو كل من يفهم شخصية سليمان غانم على أنها نموذج للفلاح الصحيح أن يراجع نفسه لأن هذا بعيد عن الحقيقة تماما ، أما المسلسلات التي تتحدث عن الفلاحين بوصفهم سذج ، فأنا أرفضها مثلكم تماما ، وأؤكد لكم أن تاريخ مصر هو تاريخ قراها وفلاحيها ، هو تاريخ البسطاء في الحواري والأزقة ، هو تاريخكم الذي يحاول البعض تشويهه ، فانتبهوا له ، طه السماحي وزينهم السماحي والأسطي زكريا هم من البسطاء الذين قدموا حياتهم ثمنا لبلدهم ، وأدعو الشباب الواقف أمامي أن يتخذوهم قدوة لهم ، ثقوا في أنفسكم ، ولوعدتم إلى تاريخكم ستجدون أن صناعه الحقيقيين هم منكم

أنتم ، أحمد عرابي جاء من الفلاحين ، وجمال عبد الناصر جاء من الطبقة المتوسطة .. الذين يكتبون عن الفلاحين على أنهم سذج ، لا يعرفون الحقائق كاملة عن الريف ، وأنا حتى الآن لم أكتب عملا عنهم ربما لأن الفكرة لم تأتي بعد ، ولأنني أمام عطائهم لمصر مازلت أبحث عن كيف أكتب عملا يخلد هذا العطاء ،وأصارحكم أنني وجدت هنا في هذه القرية جمهورا واعيا ، ورأيت فلاحين نفتخر بهم جميعا ، وكل هذا ساهم في تأصيل الصورة الإيجابية ،لمحترمة الموجودة عندي من الأصل عن الفلاحين ، وأعدكم لو كتبت عملا عن الفلاحين ستكون صورتكم أمامي».

تحدث سيد عبد الكريم في الندوة كما تحدث سيد عزمي ، لكن أسامة كان في كلامه أشبه برسول يحرض الذين أمامه على العمل من أجل التغيير ، وأن ذلك لن يبدأ إلا بالثقة في النفس ، ولهذا كانت كلماته تتم على إيقاع من التصفيق المتواصل ، وحرص على الاحتفاظ بكل الأوراق التي كانت تحمل الأسئلة المكتوبة من بعض الحاضرين ، ومن فرط إعجابه بما حدث طوال اليوم قال لسيد عبد الكريم ضاحكا : « لازم نغيظ صلاح السعدني ، مش كان أحسن لو حضر معانا ، كان هيلاقي الجمهور اللي بيحب يشوفه بجد »

إلى الزقازيق

كانت جولتي الأخرى في الندوات مع أسامة أنور عكاشة إلى معهد الكفاية الإنتاجية في جامعة الزقازيق ، ولجأ إلى عدد من طلابه لدعوته التي لباها على الفور ، واصطحبته من القاهرة إلى هناك في سيارة تبعة للجامعة ، وجاءت بعد أسابيع من الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠ ، وهو الحدث الذي ساهم إلى حد كبير في حدوث مراجعات كبيرة لقناعات أسامة العروبية ، والتي كانت واضحة في أعماله الدرامية السابقة ، وطوال الطريق من القاهرة إلى الزقازيق ذهابا وإيابا ، لم ينقطع الحديث عن الغزو العراقي وهجومه الحاد عليه ، أبدي أسامة خلال حديثه تعجبه

الشديد ممن شبهوا صدام حسين بجمال عبد الناصر ، وقال بحدة طالبا مني أن أنقل إليهم كلامه :« كيف يري بعض الناصريين أن صدام سيقاوم التحالف الدولي الذي يتكون الآن لإجباره على الخروج من الكويت ، وسيكون كعبد الناصر أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، الظروف تختلف الآن .. عبد الناصر كان يواجه استعمارا حقيقيا ،ويحارب من أجل قضية عادلة ، واحتشدت من ورائه الجماهير العربية من المحيط إلى الخليج ، عبد الناصر كان أملا جديدا في معركته ومقاومته .. عبد الناصر صدقته الجماهير ومقارنته بصدام افتراء وكذب .. صدام لا يصدقه أحد بعد ما فعله بغزو الكويت .. الظرف الدولي مختلف ويجب قراءته بوعي .».

واصل أسامة : « نحن أمام أفدح حدث عربي بعد كامب ديفيد ، وستظهر نتائجه على المدي الطويل ، الكل سيدفع الثمن ، القضية الفلسطينية سيتم دفنها ، لن يكون هناك مجال للحديث عن القومية العربية والوحدة العربية بعد الآن ، فالوحدة التي يتم فرضها غصبا وبقوة السلاح ليست وحدة وإنما هيمنة غزو الكويت جاء بالقوي الخارجية على حجرنا ، بعد أن رفضناها ، و ناضل عبد الناصر من أجل طردها ، علينا أن نعي وهم الكلام عن إعادة توزيع الثروة العربية التي تحدث عنها صدام بعد غزوه من أجل إضفاء شرعية على ما فعله .

بدا أسامة أمامي في هذا اليوم أنه يعيش مرحلة مراجعات كبيرة ، ولاحظت منه تراجع الطابع الأيدلوجي الناصري في طرحه ،والذي استمعت إليه منه كثيرا قبل ذلك وفي أعقاب أعماله الدرامية الرائعة :« أبواب المدينة » و« الشهد والدموع » ، و« ليالي الحلمية»حتى الجزء الرابع ، وبعد سنوات قليلة خرج عمله الكبير «آرابيسك » الذي عبر عن قلقه في البحث عن هوية لمصر، ورمز في ذلك إلى فيلا كان من المفترض أن يقوم فنان الأرابيسك حسن (صلاح السعدني) بتشيد أعمال الديكور فيها ، وبعد أن قطع شوطا كبيرا في عمله ، وكاد أن ينتهي منه ، قام بتفجير

الفيلا ، ولما سأله صاحب الفيلا (كرم مطاوع) عن السبب ، تحدث حسن آرابيسك عن أنه لابد من التفكير في شيء جديد ، والمثير في هذا المسلسل أنه بالرغم من أن أسامة يدعو صراحة إلى التفكير في هوية جديدة إلا أن ذلك لم يقوده مثلا إلى تغيير نظرته في إسرائيل ، فالمسلسل شمل على قصة مطاردة « الموساد » للعالم المصري صاحب الفيلا ، وشهدت شوارع القاهرة جانب من هذه المطاردة .

انتقد البعض وقتها أسامة على اعتباره أنه يدعو صراحة إلى التخلي عن عروبة مصر ، ولما سألته عن ذلك ، أجاب ، بأنه يقدم اجتهادا ، لم يدعو فيه صراحة إلى تخلي مصر عن عروبتها ، وإنما يدعو إلى التفكير فيما إذا كانت العروبة هي هويتنا الخالصة أم أن الشخصية المصرية مرت بحضارات مختلفة أعطتها طابعا خاصا يختلف عن باقي العرب .

دخل أسامة بعد آرابيسك في جدل عنيف بعد أن أعلن أن القومية العربية تم دفنها في حفر الباطن ، في إشارة منه على حرب الخليج (١٩٩٢) التي أخرجت العراق من الكويت ، وظل يتراوح بين الهجوم على القومية العربية ، ثم العودة إليها ، وفي عام ٢٠٠٦ ومع تفجر الجدل حول هجوم جديد منه ضد القومية العربية ، كتبت في « المصري اليوم » مقالا ، قلت فيه :« فلنترك أسامة يختار ما يشاء من قناعات فكرية ، ويكفينا منه أنه رمزا قويا وصلبا في محاربة الفساد وخاربا صلبا من أجل الديمقراطية ، ومقاتلا شرسا ضد إسرائيل والمنادين بالتطبيع معها » ، وحدثني تليفونيا متأثرا وهو يقول لي :« أشكرك يا أصيل » ، وبعدها بشهور جاء عمله الدرامي الكبير « المصراوية » الذي حاول من خلاله التوصل إلى إجابة شافية على سؤال الهوية الذي عذبه طويلا ، وكان يعتزم اعتزال الكتابة الدرامية بعد الانتهاء منه ، لكنه رحل قبل أن يستكمله ، وقبل أن يقدم لنا الإجابة على سؤال الهوية .

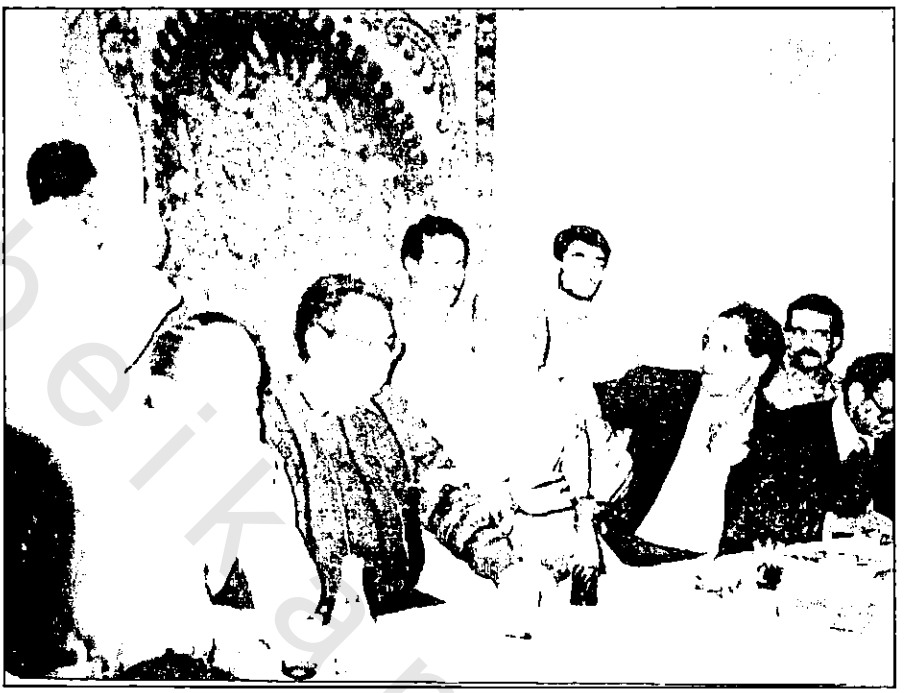

في ندوة مركز الشباب عن مسلسل «ليالي الحلمية » .. أسامة أنور عكاشة يتوسط الفنانين سيد عبد الكريم وسيد عزمي في مركز شباب كوم الأطرون ، وسعيد الشحات بجوار سيد عبد الكريم ، وبجوار سعيد يجلس الأستاذ سامي أحمد (رحمه الله) ، وبجواره الدكتور عزازي علي عزازي ، وفي الخلفية اثنين من أبناء القرية هما جمال مرتضي (رحمه الله) ومحروس عطاالله .